فولكمار

جاء فولكمار لزيارتنا بعد بضع سنين وذهب يوسف ونضال لاستقباله في المطار.. كان عفيف واجما جالسا على مقعده في الصالون قبالة التلفزيون، وأنا الى جانبه، وكـان الشاب الذي أطل من الباب وسيما كصورتيه اللتين أرسلهما إلينا كي نتعرف اليه، فـارع الطول الاّ أنه لا يسير بشكل منتصب، كأنما اعتاد أن ينحني دائما بسبب طولـه.. ربمـا كان مضطربا خائفا منفعلا الى حد ما، وعانقه عفيف دون مودّة كبيرة، وقبلته أنا وجلس الإثنان يروز أحدهما الآخر.. سأله عفيف: "لماذا لم تأت أمك؟" قال: "ستلحق بـي بعـد أسبوع! " وبحث في جيوبه وأخرج كومة من الأوراق والصور وكأنه سفير جديـد يقـدّم أوراق اعتماده الى رئيس البلد الذي أرسل اليه.. هذه شهادة ميلادي، وهذا جواز سفري.. كانا باللغة الألمانية، وتاريخ مولده كما قالت أمه، قبل عامين من مولـد سـلام واسـمه فولكمار وكنيته مثل عائلة أمه.. وأرانا بعض الصور مع المرأة التي ربته وهو يساعدها في صنع البسكويت وصفه في الصواني، وغيرها في رش الحديقة.. كل هذه الأمور كان يمكن تزويرها ولكن الشبه كان قويا بينه وبين نضال، عـدا أن عينـي فولكمـار كانتـا زرقاوين، وعينا نضال عسليتين.. الطول الفارع وعظام الجمجمة وشكل الفم والأنف..

أخرج نظارته ووضعها على عينيه، كان يعاني من الستجماتزم ويتساءل "لا أعرف ممن ورثت هذا الإنحراف! ولكن هذا أفضل.. أصبحت أراكم جيدا الآن!"

كان أولادي سعداء أن يكون لهم أخ أجنبي يتقن اللغة الإنجليزية الى جانـب لغتـه الأصلية فيستطيعون التحدث معه.. كانت أمه حين تزوره ويسألها عن والده تقول له بأنه المسيح، فيسخر منه الأولاد ويشفق عليه آخرون ويقول بعضهم أن أمه مجنونة.. لقد كف عن الجواب وانطوى على نفسه.. ولكن حين كبر وقالت له أمه بأن أباه رجل مهـم فـي سوريا امتلأت في رأسه الأوهام.. ظن أنه سيدخل قصرا وتمتد له مائدة عـامرة فخـاب أمله اذ رأى بيتا متواضعا ومائدة عادية.. استغرب أن سلام ويوسف قد اختارا الهندسـة مهنة لهما في مقبل الزمن، بينما القانون أوالجيش هما المجالان اللذان يوصلان الإنـسان الى قمة المجتمع..

قال له يوسف: ان المتميزين عندنا يدخلون فرع الطب أو الهندسـة، أمـا القـانون والجيش فلا يتطلبان منا الاّ الحد الأدنى من علامات النجاح في الثقافة العامة الثانوية..

سأله عفيف: "وأنت ماذا تطمح أن تكون بعد دراستك في القانون؟"

-أرغب في أن أصبح قاضيا وأدخل محكمة لاهاي الدولية! بما أنني لم أسـتطع أن أكون رجل جيش لا بصفاتي الجسدية ولا الروحية، فأنا أكره العنف، وفي رأيي أن القادة العظام في التاريخ هم أسوأ الحكام، وأكثر الناس الذين جلبوا البلاء لشعوبهم.. قال عفيف مستاءا:

-المهم ليس اختيار الفرع فقط، ولكن القدرة على التفوق فيه، ولهذا من الخطـأ أن يقيد الإختيار بعلامات النجاح في المرحلة الثانوية.. ومن ناحية أخرى فان الشباب عندنا يفضلون الطب لأنه أكثر المهن الحرة ربحا في مجتمعنا.. ودراسته لا تتطلب تفوقا ذهنيا كالذي تتطلبه الهندسة، ولكنه يتطلّب مهارات معينة لا ينجح فيها كل طبيب عند التطبيق.. وفي بلادكم يختلف الأمر، يصبح للقانون والجيش أهمية قصوى بسبب تعقـد المـشاكل والمنافسة الإستعمارية الشرسة.. ولكن لا يصبح كل من درس القانون مميزا كلنكـولن، ولا كل قائد عسكري يجلب البلاء لشعبه كهتلر!..

المهم هي الشخصية التي يتحلى بها الإنسان، والقيم التي يؤمن بها، والنظام الـذي يحركه أو يمنعه من تحقيق ذاته..

أذكر بضعة أحاديث جرت بيني وبين فولكمار حين نكون منفردين.. أخبرني أن أمه كانت تقول له حين يسألها عن والده أنه لا أب له، وترفع عينيها الى السماء قائلة: "أبوك الذي في السماوات"، وكيف كان يظن حقا، أن الله هو والده.. وحين ترعرع وشب عـن الطوق، بدأت تقول له بأن والده رجل مرموق ومهم جدا وربما أصبح الرجل الأول فـي بلاده لو أنه يغير سياسته، ولكنها لم تكن تبوح باسمه له.. كان طموح فولكمار كبيرا جـدا ففي اعتقاده أن والده إذا اعترف به وعرف الناس أنه ابن عفيف البزري وسينا موريا فان أبواب النجاح ستفتح على مصراعيها أمامه!

قلت له: نحن ربينا أولادنا بأن عليهم مسؤولية كبيرة تجاه وطنهم، وأن عليهم أن لا يتخلوا أبدا عن مبادئهم، وعما يعتقدون بأنه حق، حتى لو نـالهم الأذى وأودعـوا فـي السجون.. وأردفت:

-ظننت أنك كنت تغمز البارحة من نضال أبيك عندما تحدثت عن القـادة العظـام بأنهم أسوأ الحكام وأكثر الناس الذين جلبوا البلاء لشعوبهم.. هذا ينطبـق علـى الـبلاد المستعمرة لشعوب غيرها وتضطهد شعبها، أو على القادة العملاء في البلدان الواقعة تحت الإحتلال ويريدون إدامة العذاب والعبودية لشعوبهم، لا على المناضلين أبطال التحريـر، فلا تظن أن والدك يغير يوما سياسته، ويتخلى عن نضاله.. لا أحد يؤثر عليه مطلقا.. فلا تكن عونا عليه كالآخرين!

دخلت المطبخ المقابل لغرفة الطعام لأغسل الصحون بينما ذهب الأولاد الى الداخل لتحضير دروسهم، وبقي فولكمار وحده مع والده.. لم أنتبه الى بداية الحوار بينهما ولكن صوت عفيف علا وبت أسمعه جيدا من مكاني.. قال له:

-أنا لا أستطيع أن أؤثر فيك كما أؤثر في أولادي الآخرين، فلقد تربيت خارج بيتي، وتشكلت آراؤك وقناعاتك التي لا أوافقك عليها ولا تناسبني.. ولا تظن أنني أب متـسلّط أفرض آرائي على أبنائي.. لقد أتيحت لهم منح الدراسة في أحـسن جامعـات موسـكو ولكنني رفضت. أردت أن يدخلوا الجامعة في بلادهم ويكونوا وثيقـي الـصلة بـوطنهم وأمتهم ويكونوا أحرارا بتفكيرهم.. والآن تأتي وتخبرني أنك بعد أن حصلت على منحـة لدراسة اللغة الإنجليزية خلال عام ذهبت الى اسرائيل فـي عطلتـك الـصيفية، وزرت مستعمراتها، وأدهشك التقدم العمراني فيها والحدائق الغناء الي تحيطها وتشفق على سكان مستعمرات الشمال مما يصيبهم من أذى الفلسطينيين!.. ألا تشفق علـى سـكان صـيدا ونصفهم من أهلك وقرابتك مما ينالهم من أذى اسرائيل بهدم بيوتهم وقتل أبنائهم وحـرق مزارعهم وبساتين البرتقال في ضواحيهم، لا لشيء الاّ لأن الفلسطينيين الـذين اقتلعـتهم اسرائيل من جذورهم ورمتهم خارج ديارهم يعيش البعض منهم في جوارهم؟ كيف تدرس القانون اذا لم تعرف الحق من الباطل، وتنصب نفسك قاضيا في محكمة دولية ذات يوم.. ثق أنك لن تبلغ هذا المنصب حتى تكون طرفا في اللعبة القذرة التي تجعل من إسـرائيل ذات حق والقضية الفلسطينية بعيدة عن كل عطف وتأييد!..

كان صامتا لا يفوه بكلمة واستمر عفيف:

-أنا رجل خضت الحروب وتعرضت للمهالك ودخلـت الـسجون، وحكـم علـي بالإعدام.. ثم جلست في قوس المحاكمات أكثر من مرة، وأصبحت قائد جيش.. لو شئت

بجرّة قلم أن أصبح سيد البلاد ما كان يعيقني شيء!.. لم أبلغ ما بلغته من مجـد لأننـي رجل متطرف أو ارهابي أو انتهازي أو دجال.. تظنني رجلا أكـره الـسلام، وأنتـشي بإهراق الدماء، ولهذا اخترت مهنة الحرب؟.. أنا ببساطة انسان يكره الظلـم ولا يكـره السلام، يكره الإمبرياليين ولا يكره شعوبهم، يكره الإستغلال ولا يكره العلاقات المتكافئة، يكره الربا ولا يكره التجارة، يكره الخونة والعملاء ولا يكره حق الشعوب المظلومة فـي مقاومة الإحتلال!

هذا هو موقفي من الحياة، وهذا الذي يقود الى تصرفاتي.. وأنا بالتالي لست رجـلا متعصبا.. لا أتعصب لدين أو طائفة ففي رأيي أن كل الأديان قد عـادت الـى وثنياتهـا وفقدت روح الإيمان وجوهره في خلاص الإنسان.. ان ما ينفع الإنسانية ويجنبها الـدمار الشامل هو ما أعتنقه من مذهب اليوم. ولست متعصبا كذلك لأيديولوجية معينة كما يروج عني الخصوم، فأنت لا تستطيع أن تصنفني وتعلق يافطة على ظهري تنبئ بهويتي.. ان ما ينبئ عني هو ماكتبته حتى اليوم وما سأكتبه بقية حياتي.. وبعـد أن تنهـي دراسـتك الجامعية وتصبح أكثر نضوجا ستعرف والدك على حقيقته، وحين تدرس اللغة العربيـة تقرر الإنتماء اليه، أو تشق طريقا خاصا بك..

مر الأسبوع وكان فيه فولكمار يوثق علاقته مع أولادي، ويخرجون الى الأسـواق يشتري الهدايا التذكارية لرفاقه من الصناعات الدمشقية، ويـزورون المتـاحف والآثـار القديمة، وجاءت أمه وسألتني عن تطور العلاقة بين فولكمار ووالده فقلت لهـا: "اسـألي فولكمار.. كانت أحاديثه معه غالبا بشكل منفرد حين يكون الجميع في كلياتهم أو مدارسهم وأنا في المطبخ أعد الطعام".

أخلى يوسف مكانه لسينا موريا حين جاءت ونام على الديوان في الـصالون، أمـا نضال فكان قد أخلى سريره من قبل لينام فيه فولكمار..

كان فولكمار وأمه يتحاوران بالألمانية ويتشاجران، وفهمت من سينا أنه لم يعجبـه شكل الحذاء الذي أحضرته له معها.. كان يبدو من لهجته أنه ناقم عليها لأمر ما.. قالـت لي بأن الغيرة تستبد به من الطريقة التي تعامل بها أولادي.. ولأنها تخلـت عنـه فـي صغره، وأنها كذبت عليه في أشياء كثيرة وجعلته يعيش في الأوهام.. وتنهدت: "لا أعرف

ماذا وضع عفيف في رأسه.. ألا يكفيني الأذى الذي نالني بسببه حتى يشوه صورتي أمام ابني؟ قلت لها:

-لايمكن لعفيف أن يشوه صورتك أمام ابنك! أبدا!

-بلى! انه يلقي اللوم علي فيما حدث لفولكمار من وضع لا يمكن لـه تـصحيحه الآن، انه يلومني أنني لم أخبره عنه في الوقت اللازم، وتركته لامرأة غريبة ترعاه، ولم أعطه الحنان الكافي، ولم أشربه الحب لأهله وناسه.. كان يردد كلام أبيه علي!..

بكت سينا موريا وقالت:

-انني أعطيه نصف راتبي ولكن هذا لا يرضيه.. انه يحب المرأة التي ربّته أكثـر من حبه لي، وهي دائما تحرّضه علي!.. أمك لا يشغلها الاّ السفر ومقابلة زعماء العالم، ليس لديها وقت لتسألك عن معاناتك، وعن الأزمة التي تعيشها.. انه في السن التي يريـد فيها أن يبني علاقات مع الفتيات من الطبقة الراقية، وهو لا يستطيع هذا لأن والده يرفض الإعتراف به!.. سيضيع هذا الولد، انه مصمم حين يعود الى ألمانيا أن يجد بائعة هـوى يعيش معها.. تصوري! كيف أسمح له بهذا؟ سيتخلى عن دراسته وجامعته ولـن يـنجح أبدا.. ذهبت الى طبيب نفسي وأخبرته أمره.. قال لي: "مابه من شـيء.. انـه احـساس الوحدة الذي يعانيه، وهذه ردود فعل طبيعية.. يجب أن يتزوج!" ولكنـه لـن يـستطيع الزواج من عائلة مرموقة دون أن يعرف من يكون والده..

كانت تريد أن يعود فولكمار الى بلده وتسافر هي لمقابلة أصدقاء الملك فيصل فـي السعودية.. مدحته كثيرا وقالت أنه كان صديقا لها.. كثيرون كانوا أصدقاءها: عبد الكريم قاسم، وهلموت كول، والمشير عامر والآن تترحم على الملك فيصل وتقول عنه بأنه كان صديقا حميما لها.. أسرّت الي بأنها كانت تنوي توثيق الصلة بين سوريا والسعودية حتى أنها فكرت بتزويج سلام الى أحد أبناء الملك فيصل فقلت لها: "اياك أن تذكري هذه القصة أمام عفيف.. انك لا تعرفين كيف تكون ردود فعله!" قالت:

-أعرف، ان خطأ عفيف أنه لا يعرف أبدا كيف يصل الى مركز القـوة.. يعـادي على كل الجبهات.. ما ذنب السعودية حتى يعاديها! ألأن لديها بترولا تريد أن تبيعه بـدل أن يبقى مدفونا في الأرض؟ ان عفيف قد تبنى قضية خاسرة، لأنه اليوم لا يـستطيع أن

يكون فعالا في الأحداث كما كان سابقا الاّ اذا بدّل سياسته وعرف أن ما قدر لهذه المنطقة سيجري به أو بدونه..

لم تعجبني لهجتها فقلت لها:

-عفيف لم يتبنّ قضية خاسرة، انه انسان قلّ أن تشهدي مثل ثقافته ونزاهته وبعـد نظره وشمولية تفكيره بين عسكريي الوطن العربي، ولكن لسوء حظه تبنى قضية تـآمر عليها العالم وخانها حتى قادتها، وأحـاط بهـا الجـاهلون والمـزورون والإنتهـازيون والمفسدون وأخذوا بزمامها ولم يتركوا للحقيقة أن تظهر أبدا..

جرى الكثير من الأحاديث بين سينا موريا وعفيف كنت فيها مستمعة، أصبحت تعبر عن نفسها جيدا باللغة الإنجليزية ولم يعد هناك من حاجة الى وساطتي.. لم يغير عفيـف شيئا من مواقفه لا بالنسبة للقصة الخاصة بها، ولا للسياسة العامة التي تتبناها.. عرضت علينا السفر الى ألمانيا فرفض عفيف، وسافرت الى السعودية والأمور كلها معلقة..

وحين عادت من السعودية انفردت بعفيف في غرفة الجلوس، كانت في كـل مـرة تتحدث فيها تخلط قصتها الخاصة بالأحوال العامة.. سمعت طرفـا مـن الحـديث عـن الجولان والضفة الغربية، وعن ضرورة زواج فولكمار بواحدة من عائلة أبيه.. كانت قد حدّثتني بهذا قبل أن تسافر، وكنا قد دعينا الى عدد من بيوت العائلة دون أن يبدي اهتماما خاصا بأحد.. أعجبه كرم الضيافة، والأطباق الشرقية التي قدمت لـه.. سـألته: "مـاهي المواصفات التي تريدها لفتاة أحلامك فأجاب: "فتاة تكون طويلة القامة ممشوقة القوام لها شعرطويل أشقر وعينان زرقاوان، ولم يكن فيمن رأى من تحمل هـذه الـصفات. كـان يصف أمه التي حرم من حنانها ولما قلت لها ذلك ابتسمت وقالت: "آه فولكمار، كم هـو متطلب!..

* * *